

أرق من رراق السراب

فدوى القاسم

١

وأخيراً جاء يوم الأربعاء. التقيا وجهًا لوجه بعد طول انتظار.

كان مشوارهما قد بدأ، قبل ستة أشهر، في منتديات الدردشة، وفي إحدى غرف الحوار الخاصة، حيث عرت أمامه روحها. لم يخطُرُ ببالها أنها ستضيع، وأنها ستأخذ منعطفًا جديدًا، وأن الطريق سيلتوي بها فيأخذها إلى تفرعات تفاعلية متهوِّرة فقط عندما رآته أمامها استطاعت أن تتنفس مرةً أخرى ارتمت في حضنه، كأنها تعرفه الدهر كله أول مرة تراه، وعرفته فوراً عيناه، ابتسامته... إنه عاطف، واقع وليس خيلاً، رجل دافئ، حنون، رقيق، كاسمه. قِيلَ يديها المرتجفتين قَبْلَ عنقها ذابت بين شفقتيه. احمرت ونضجت أمام عينيه. ببطء عذب معذب، حرَّ جسدُها الرطب من سجن ملابسها أطلقت عبيرها كفاكهة شهية وقعت آخرُ قشورها إلى الأرض. وبعطشٍ، شَرِبَ رحيقها الأنثوي.

استنْفِد. مات وعاش. ذابت، وامتصَّتها خلاياه. كانت تلك هي المرة الأولى بالنسبة إليها، لكنَّها كانت معه دون خجل أو خوف أو تردد. كأنَّها كانت له في حياة سابقة. حدَّسها يُرثدها عبر مساحات رجولته. كم كانت رائحةُ جسده مثيرةً ومخدِّرة!

٢

أخيراً جاء الأربعاء. التقيا بعد طول انتظار. ارتمت في حضنه. قَبَلها. حرَّرها من ملابسها. استنشقتُ أريجَ جسده. لم نُفَلتَ منهما ثانيةً. كانَ الوقتُ اختصر نفسه. بالأسف فقط. كانت الساعة ٦٠ دقيقةً كاملةً، فماذا جرى لها الآن؟ لقد احتزلت الساعة ولم يتبقَّ منها سوى بضع لحظاتٍ تكفي لسجاريةٍ مشتركة.

أصبح لقاءُ الأربعاء تواطئياً. اتفقا عليه دونما اتفاق. ينتظرها وتنتظره. يجدها إن أتى، وتجده إن أتت. كوخ مهجور على حافة الأمواج، تختلط فيه أملاخُ جسديهما. لا شيءُ ذا أهميةٍ يحدث بين الأربعاء والأربعاء. لا شيءُ سوى ملء الخواء بين لقاءٍ ولقاء. كم كانت بطيئةً تلك الأيام، وخاطفةً تلك اللقاءات!

٣

أخيراً جاء الأربعاء. التقيا. قَبَلها. جلستُ في حضنه، وغنَّت لهما مياهُ البحر المائج. حدَّثتها عن أول كتاب قرأه باختياره. كان لكتابٍ كولمبي لم يكن يُعرف كيف يُلْفِظ اسمه.

حدَّثتها عن أول قبلة شاهداها في السينما، وكيف هجم جميعُ أبناء صفِّه لمشاهدة الفيلم، وأنه لا يذكر الآن اسمَ الفيلم ولا قصته، لكنَّه يُنكر تفاصيل القبلة بوضوح، وأنه حاول عدَّة مرات تقليدها مع صديقاته. كانت تَجْمع كلماتِه زهوراً بريئةً، تنمو حيثما تشاء، وتضعها في إناءٍ لا تتعكَّر فيه المياهُ.

كانت في حضنه طوال الوقت. وكان يمرُّ يده تحت شعرها، وعلى عنقها، وظهرها، فتحترق برغباتها. لكنَّها لم تبادره بها، بل تتركه يتحدث إليها كيفما يشاء.

٤

جاء الأربعاء، والتقيا جلستُ بقربه وَصَحَّ على يدها قبلةً روتينيةً. بدأ يتحدث عن طفولته، وعن والدته التي توفيت منذ زمن بعيد حدَّثتها عن والده الذي حاول تعويض حنان الأم بالقسوة عليهم.

♦ - كاتبة من الإمارات العربية المتحدة. وهذه القصة هي جزء من «دردشيات» تُعنى جميعها بالمحادثات عبر الإنترنت.

كانت تريد أن تحكي له عن الليالي المقمرة التي أمضتها وحدها، وعن وحدتها قَبْلَهُ، وعن مشاعرها عندما منحته نفسَهَا. كانت تريد أن تُشعر بأنّها هنا إلى جانبه، وأنّه يشعُر بدنوّها منه. كانت تريد لشعور الوحدة أن يُطلق سراحَهَا. لكنّ لم يكن هناك مجال للمشاركة؛ فقد تحدّث وحده، وتحدّثَ طويلاً، وصمّتُ جسديهما يترك فراغاً ضبابياً بينهما. يدُها في يده، طوال الوقت، دافئةً، متوتّرةً، مترقبةً.. مثلها. ولكنّ... هَرَبْتُ منها نظرةً إلى ساعة يدها.

٥

جاء الأربعماء، والتقيا كالعادة. جلستُ كلمة «كالعادة» بينهما. لقد كان ذلك هو لقاءهما الخامس، أو ربما السابع. متى بدأت اللقاءات تتبني أرقاماً؟ قُبالاته بلا روح، وحديثه يطول. شعرتُ بألفة المكان. ثمة رائحة كريهة يُطلقها البحرُ، والغبارُ يعلو حولهما عندما يجلسان على الكنبّة شعرتُ برغبة شاذة في تنظيف المكان، أو ربما في تحضير العشاء. يلعبُ بها الزمنُ؛ فلقد أصبحت الساعة الواحدةُ بمليون دقيقة.

٦

مرّ الأربعماء، دون لقاء. تحوّلَ الشوقُ إلى قلق بعد آخر أربعماء ترى هل انتظرها هناك؟ ترى هل سينتظرها الأربعماء القادم؟ وهل تذهب الأربعماء القادم؟ ذهبتُ. وذهب. الشعورُ بالذنب يحاصرها. ارتمت في حضنه وهي تشعر بأنّها تمثّل دوراً يتوقّعه منها. قَبَلَهَا. خُيِّلَ إليها بأنّه، هو أيضاً، يلعبُ الدورَ المتوقّع منه. لم يتحدّثْ عن الأسبوع الماضي لم يتحدّثْ قط. مارسا الجنس، أكثر ممّا مارسا الحب.

٧

مرّ أسبوع آخر على آخر لقاء تمرّ الأيامُ بسرعة، بين الأربعماء والأربعماء، ويتباطأُ مرورُها في ذلك اليوم تحديداً. لم تذهب. توقّعت أن يكون هناك، بانتظارها. تألّمت لعدم رغبتها في الذهاب. تألّمت وهي تتخيّل في انتظارها. أسبوعان والندمُ يأكلها: ندمٌ على عدم اللقاء، وندمٌ على أول لقاء. شعرتُ أنّها تمشي إلى الأمام بظهرها، وأنّ وجهها يُنظر إلى الخلف دائماً.

٨

جاء يوم الأربعماء. ذهبتُ. بقيتُ في السيارة سنوات. رآها من خلف الشبّاك، وقد جعل نفسه خيالَ شبح، راجياً ألا تراه. لم يستطع تحديداً قراره بالذهاب هذه المرة؛ فقد مرّت الأسابيع دون أن تكون له رغبة في الذهاب، رغم أنّ التفكير بالذهاب أو بعدمه كان يشغله. وها هو يُنظر إليها عبر الزجاج؛ ربما كانت تبكي، أو ربما كانت مترددة لأنّها لم تجده في المرات السابقة. كان بوجهه أن يعتذر إليها، أن يرسل رسالة «ماسح» إليها مثلما كان يفعل في منتديات الدردشة حيث تعارفا. كان بوجهه أن يقول لها أن لا تحزن، وأنّها رائعة وجميلة، وأنّها سوف تجد مَنْ هو أحقُّ منه لتمنّحه نفسَهَا. كان يريد أن يكون خلف الشاشة، لا خلف الشبّاك! شعرتُ أنّهما وصلا إلى نهاية تشاؤمية حزينة. مَنْ الذي سيُبَلِّغُ الآخرَ قبل نهاية العالم بثوانٍ؟ خرجتُ من السيارة. اتجهتُ نحو الكوخ (كم كان صغيراً وملوئاً!). وقفتُ أمام الباب. ووقف هو خلف الباب، يدها على المقبض.

الإمارات العربية المتحدة